الأخلاقُ المحارِبة ـ ٤ ـ

وحدَّثني صاحب سرٍّ (م) باشا بهذا الحديث ، قال : كنَّا في ثورة سنة ١٩١٩ سنةِ الهزَاهِز ، والفتَن ، وقد تفاقمت الثَّورةُ ، وأخذ الشَّبابُ يعملُ ، ويفكِّر فيما يستطيع أن يعملَ ، وما يجب أن يعمل ؛ وكان السَّخْطُ العامُّ هو ميراثَ الوقت ، فكانت قلوبُ الشَّعب تُلهَمُ واجباتِها إلهاماً ؛ إذ لم يكن في هذه القلوبِ كلِّها إلا لَذْعةُ الدَّم تعيِّن اتجاهَ أعمالها ، وتحدِّده .

كانت الثورة زلزلةً وقعت في التاريخ ، فجاءت تحت زمنٍ راكدٍ لا يتغيَّر إلا بأن يُنْسَف ، ولا ينسِفُه إلا مادةٌ إلهيَّةٌ ، كالحركة الكونيَّة ؛ الَّتي تخْرِجُ اليومَ الجديد من اليوم القديم ؛ فكان القَدَرُ يعمل بأيدي الإنجليز عملاً مصريَّاً ، ويعملُ بأيدي المصريِّين عملاً آخر .

وتعلَّم الشَّعبُ من دفْن شهدائه : كيف يَسْتَنْبِتُ الدَّمَ ، فَيُنْبِتُ به الحرِّيَّة ، وكيف يزرع الدَّمعَ ، فيُخرِج منه العزم ، وكيف يستثْمِرُ الحزنَ ، فيثمر له المجد .

وكان رصاصُ الإنجليز يصيب هَدَفين معاً : فيصرعُ شهداءنا ، ويقتلُ الموت السِّياسيَّ ؛ الذي احتلَّ معهم هذه البلاد . وقد أنعموا على الشَّعب بالصَّدمةِ الأولى ، فنَشِبَت المعركة ؛ التي تُقاتلُ فيها الأخلاقُ القوميَّة ؛ لتنتصر ؛ وشعرتْ مصرُ في جهادِها بأنَّها مصرُ ، فالتمس رُوحُها التَّاريخيُّ رمزَه العظيمَ في الأمَّة ؛ ليظهرَ فيه عاتياً جبَّاراً ؛ فكان هذا الرَّمزُ الجليلُ العظيم هو سعد زغلول .

* * *

قال صاحب السِّرِّ : وكان الطَّلبةُ قد غدَوا من أوَّل النَّهار يتظاهَرون ، وقد جعلتهم الثَّورةُ كالأرواح تخلَّصت من الموت بالموت ، فلا تخشاه ، ولا تباليه ، واستقلَّت عن العقل بتحوُّلها إلى شعورٍ مَحْضٍ ، وخرجتْ عن القوانين كلِّها إلا القانونَ الخفيَّ ؛ الذي لا يُعلَم ما هو ؟

كانوا في معاني قلوبهم لا في غيرها ، فلستَ تراهم إلا عظماءَ في عظمة المبدأ ؛ الذي ينتصرون له ، أقوياءَ في قوَّة الإيمان ؛ الذي يعملون به ، أجلاءَ في

جلال الوطن ؛ الذي يحيَوْن ، ويموتون في سبيله .

وكانوا في الشَّعب هم خيالَ الأمَّةِ العاملَ المدرك ، وشعورَها الحيَّ المتوثب ، وقُواها البارزةَ من أعماقها ، وأملَها الزَّاحفَ ؛ ليَقهرَ الصُّعوبة .

يُفَادُون بأنفسهم الغالية ، ويُؤثِرون عليها ، وليس في أحدٍ منهم ذاتُه ، ولا أغراضُ شخصِه . فما أجلَّ ، وما أعظم ! وما أروعَ ، وما أسمى !

أيتها الحياة ! هل فيكِ أشرفُ من هذه الحقيقةِ إلا حقيقة النُّبوَّة ؟

* * *

قال : وكان أخي هو زعيمَ هؤلاء الطَّلبة في مدينتنا ؛ قويٌّ على الزَّعامة ، وفيٌّ بها ؛ يحمل قلباً كالجمرة الملتهبة ، وله صوتٌ بعيدٌ تحسبُ الرَّعدَ يُقَعْقِع به . إذا مشى في جهاده ؛ كان كلُّ ما على الأرض تراباً تحت قدميه ، فلا يمشي إلا محتقِراً هذه الدُّنيا ، وما فيها ، غيرَ مقدِّسٍ منها إلا دينَه ، ووطنَه ؛ وسلاحهُ : أنَّ كلَّ شيء فيه هو سلاحٌ على الظُّلم ، وضدٌّ الظُّلم .

وكان في ذلك اليوم يقود « المظاهرة » ، وحوله جماعةٌ من خالِصته ، وصَفْوة إخوانه ، يمشون في الطليعة تحت جوٍّ متَّقِدٍ ، كأنَّ فيه غضبَ الشَّباب ، عنيفٍ كأنَّما امتزج به السُّخطُ ؛ الذي يفورون به ، رهيبٍ كأنَّه مُتهيِّئٌ لينفجر ، فلمَّا بلغوا موضعاً من الطريق ينعطفون عنده انصبَّ عليهم المدفع الرَّشاش . . .

قال : فإنِّي لجالسٌ بعد ذلك في الدِّيوان ؛ إذ دخل عَلَيَّ أخي هذا ينتفضُ غضباً ، كأنَّ المعاني تنبعثُ من جسده ؛ لتقاتل ، ورأيتُ له عينين ينظر النَّاظرُ فيهما إلى النَّار التي في قلبه ؛ فخشيتُ أن يكونَ القومُ أطلقوا عليهم الجنون ، والرَّصاصَ معاً .

واستنبأتُه خبرَ أصحابه ، فقال : إنَّ الذين كانوا حوله وقعوا يتشَحَّطون في دمائهم[(١)] ، فوقفَ هو شاخصاً إليهم كأنَّه ميتٌ معهم ، وقد أحسَّ كأنَّما خَلَع عن جسمه نواميسَ الطَّبيعة ، فلا يعرف ما هي الحياةُ ؟ ولا ما هو الموت ؟ وكان الرَّصاصُ يتطاير من حوله كأنَّ أرواحَ الشُّهداء تتلقَّاه ، وتُبعثره لا يناله بسوءٍ . قال :

---

(١) « يتشحطون في دمائهم » : تشحط في دمه : تخبَّط فيه ، وتضرَّج .

وما أنْسَىٰ ولا أنسَىٰ ما رأيتُه في تلك السَّاعة بين الدُّنيا والآخرة ؛ فلقد رأيتُ بعيني رأسي الدَّمَ المصريَّ يسلِّم على الدَّمِ المصريِّ ، ويسعى إليه ، فيعانقهُ عناق الأحباب .

ثمَّ قال : أين هذا الباشا ؟ وما باله لم يصنع شيئاً في الاحتياط لهذه الفَوْرة ؟ يكاد الخِزْيُ واللهِ ! يكونُ في هذه الوظائف على مقدار المرتب .

* * *

قال صاحب السِّرِّ : ولم يُتِمَّ كلمته حتَّى خرج علينا الباشا متكَسِّرَ الوجهِ من الحزن ، قد تغرغرتْ عيناه ، فأخذ بيد أخي إلى غرفته ، وتبعتُهما ، ثُمَّ قال : هَوْناً ما يا بنيَّ ! إنَّ العلَّةَ فيكم أنتم يا شبابَ الأمَّة ، فكلُّ ما ابتلينا ، أو نُبتلىَ به هو ممَّا يستدعيه خمولكم ، وتستوجبه أخلاقُكم المتخاذِلة ؛ إنَّنا من غيركم كالمدافع الفارغةِ مِنْ ذَخيرتها : لا تَصلُح إلا شكلاً ، وبهذه العلَّةِ كان عندنا شكلُ الحكومة ، لا الحكومة .

أتدري يا فتى! ما هي الحكومةُ الصَّحيحةُ في مثل حالتنا ؟ هي أن تحكموا أنتم في الشَّعب حكومةً أخلاقيَّةً نافذةَ القانون ، فتضْبِطوا أخلاقَ النِّساءِ ، والرِّجال ، وتردُّوها كلَّها أخلاقاً محارِبةً ، لا تعرفُ إلا الجِدَّ ، والكرامةَ ، وصرامةَ الحقِّ ؛ وإلا ؛ فكما تكونون يُوَلَّى عليكم .

هذا وحده هو الذي يُعيد الأجانب إلى رشدهم ، وإلى الحقيقة ، فما أراهم يعاملوننا إلا كأنَّنا ثيابٌ معلَّقة ليس فيها لابِسوها .

كيف يتَصَعْلَك المصريُّ للأجنبيِّ لو أنَّ في المصريِّ حقيقةَ القوَّة النفسيَّة ؟! أترى بارجةً حربيَّة تتصعلك لزورق صيدٍ جاء يرتزق ؟

إنَّ في بلادنا المسكينةِ الأجانب ، وأموالَ الأجانب ، وغطرسةَ الأجانب ؛ لا لأنَّ فيها الاحتلال ، كلاَّ ، بل لأنَّ فيها ضعفَ أهلها ، وغفلةَ أهلها ، وكرمَ أهلها . . . بعضُ هذا يا بنيَّ ! شبيهٌ ببعضٍ ، وإلا فما هو كَرمُ الشَّاةِ الضَّعيفةِ إلا لذةُ لحمها . . . ؟

نريد لهذا الشَّعب طبيعةً جدِّيةً صارمةً ، ينظر من خلالها إلى الحياة ، فيستشعرُ ذاتَه التَّاريخيَّةَ المجيدةَ ، فيعملُ في الحياة بقوانينها ؛ وهذا شعورٌ لا تُحْدِثُه إلا

طبيعةُ الأخلاقِ الاجتماعيَّة القويَّة ؛ التي لا تتساهل من ضعفٍ ، ولا تتسمَّح من كذبٍ ، ولا تترخَّصُ من غفلةٍ . والحقيقةُ في الحياة كالحقيقة في المنطق : إذا لم يَصْدُق البرهانُ على كل حالاتها ؛ لم يَصدُقْ على حالةٍ من حالاتها ، فإذا كنَّا ضعفاء كُرماء ، أعزَّاء ، سادةً على التَّاريخ القديم ؛ فنحن ضعفاءُ فقط .

إنَّ الكبراءَ في الشَّرق كلِّه لا يصلحون إلا للرأي ، فلا تَسُوموهم غيرَ هذا ، فهم قد تلقَّوا الدَّرس من أغلاطهم الكثيرة ، وبهذا لن تُفلِحَ حكومةٌ سياسيَّةٌ في الشَّرق النَّاهضِ ما لم يكن شبابُها حكومةً أخلاقيَّةً يُمِدُّها من نفسِه ومن الشَّعبِ في كلِّ حادثة بالأخلاقِ المحاربة .

يا بنيَّ ! إنَّ القويَّ لو اتَّفق مع الضَّعيف على كلمةٍ واحدةٍ لا تتغيَّر ؛ لكان معناها للأقوى أكثرَ ممَّا هو للأضعف ؛ فإنَّ هذا القويَّ ؛ الذي يعملُ مع الضَّعيف يكون فيه دائماً شخصٌ آخرُ مختفٍ ، هو القويُّ الذي يعملُ مع نفسه .

هكذا هي السِّياسة ؛ أما في الإنسانيَّة ؛ فلا ؛ إذ يكونُ الحقُّ دائماً بين الاثنين أقوى من الاثنين .

* * *